فن الكتابة والتأليف عند العرب
(من عصر النقش إلى عصر الطباعة)

د. عبدالعزيز الحاج مصطفى (*)

المقدمة :

مرت الكتابة عند العرب بمراحل مختلفة ، اتخذت شكلاً متدرّجاً ، بدأت أولياته مع النقش العربي الذي يعود تاريخ بعضه إلى سنة 250م.[1] وبعضه الآخر إلى سنة 568م. وخلال هذه الفترة كان النقش بعامة يخضع لسنن التطور التي تحكم حياة العرب ويرتقي مع الفصحى ارتقاء دلت عليه طبيعة النقوش التي عثر عليها .

ثم ما يكاد نجم الإسلام يبزغ حتى تنشط الكتابة نشاطاً لم تكن شهدته من قبل ، ويقبل المسلمون على الكتابة إقبالاً أدى فيما بعد إلى التدوين وإلى الحركة العلمية التي تمخضت عن الازدهار العلمي الذي شهده القرنان الثاني والثالث الهجريان ، ومن ثم إلى الدخول في عالم التأليف المنهجي والموسوعي الذي خلف لنا هذا الكم الهائل من المؤلفات المخطوطة ، التي يرقد كثير منها على رفوف المكتبات داخل الوطن العربي وخارجه .

(*) جامعة ذمار – كلية التربية – قسم اللغة العربية.

وقد أدت النتيجة – لاسيما بعد ظهور الطباعة – إلى التفات الباحثين من عرب ومستشرقين إلى المخطوط وإلى الانكباب عليه دراسة وتمحيصاً ، وإعادة نظر . وذلك فيما عرف ولا يزال يعرف باسم (التحقيق) .

وهذه المسيرة العلمية التي حددنا بداياتها بظهور النقش ونهاياتها بظهور الطباعة، هي التي ستكون مدار بحثنا وهي التي تتمثل في المراحل التالية :

1- مرحلة ما قبل الإسلام .

2- مرحلة صدر الإسلام .

3- مرحلة الكتابة وفن التأليف إلى منتصف القرن الرابع الهجري .

4- مرحلة التأليف الموسوعي من (350- 1215 هـ) ، وهي نهاية العصور الوسيطة.

5- مرحلة الطباعة ،التي بدأت مع بداية العصر الحديث .

أولاً – مرحلة ما قبل الإسلام :

يجمع الباحثون حول أوليّة الخط العربي حيث يرون أن الكنعانيين [2] الذين نزحوا من شبه جزيرة العرب أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ((واستقروا في فلسطين ، أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة ، وهي الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء ، ويعود تاريخها إلى سنة 1850 قبل الميلاد ومن الكنعانيين انتقلت إلى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم بين سنة 85-750 قبل الميلاد إلى الإغريقية واللاتينية)) [3] وهذا يدل على أنها كانت الأبجدية الأم لكل الأبجديات التي ظهرت لاحقاً في العالم .

أما ما يقال عن الكتابة العربية في هذه المرحلة فقد كانت في مستوى ضعيف جدا لأسباب وسمات وملامح يذكر منها :

أ) غلبة الأمية وانتشارها في شبه الجزيرة العربية بالكامل . وهذا يؤيد صحته قول الله سبحانه : ((هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)) [4] .

ب) عدم وجود كتاب ما بين أيدي العرب مهما كان نوعه ؛ نسجوه من بنات أفكارهم أو ترجموه عن غيرهم . وهذا يؤيده بدائية الكتابة التي كانوا عليها . وغلبة الأمية التي كانت سائدة في أوساطهم. وقد ((كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة وبعدهم عن الصنائع))[5] .

ج) انقطاع الأفق الحضاري الذي كان عليه العرب في جنوبي شبه الجزيرة العربية بعد أن أخلدوا إلى أمية. يقول ابن خلدون ((وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري ، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب . ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة ، لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ، ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش)) [6].

د) اقتصار الكتابة عند العرب على النقوش التي قلما خلت منها منطقة من بلاد العرب . التي كانت موزعة بين شمالي شبه الجزيرة العربية وجنوبيها ،التي يذكر منها)) [7] .

1ـ نقش كتابة أم الجمال الأول :

عثر على هذا النقش الحجري في أم الجمال الواقعة جنوبي حرّان . وهي من أعمال شرقي الأردن ، وقد كتب بالخط النبطي . [8] المتأخر حوالي سنة 250 م. ويعود هذا النقش إلى قبر فهر بن سلمى مربي خزيمة ملك تنوخ الذي عاصر الملكة زنوبيا وقد كانت هلكته على أيديها [9] .

2ـ نقش كتابة النمارة (حوران) :

أقدم نقش ، دون سنة 223 نبطي (329م) . اكتشفه العالم (دوسو) في موقع النمارة من أعمال حرّان [10] في سوريا . ويعتقد ستاركي أن هذه الكتابة نبطية بلغة عربية قريبة من لهجة قريش وهي شاهدة قبرامرئ القيس بن عمرو ملك العرب .

3ـ **نقش كتابة أم الجمال الثاني :**

عثر عليه في موقع كنيسة تدعى الكنيسة المزدوجة ، درسها لينمان وقدر تاريخها القرن السادس الميلادي ، ومع ذلك فإن الأثر النبطي فيها واسع جداً وغير مؤرخ ويضم العبارة التالية :(إله غفر لأثيم بن عبيدة كاتب العبيد أعلى بني عمري ينم عنه من) .

4ـ **نقش كتابة أسيس. بادية حوران :**

نسبة إلى جبل يقع على بعد (105) كم جنوبي شرقي دمشق عثرت عليه بعثة ألمانية للتحري عن الآثار في سورية ، في حزيران سنة 1965م ويضم النقش نصاً عربياً من أربعة أسطر ، وتعتبر هذه الكتابة التي ترجع إلى عام 528م أكثر الكتابات العربية الأولى تكاملاً ومع ذلك فهي مؤرخة بالنبطي .

5ـ **نقش زبد :**

سمي بهذا الاسم نسبة للموقع الذي عثر عليه ، والذي يقع بين قنسرين ونهر الفرات جنوبي شرقي حلب .. وجد هذا النقش على قطعة كبيرة من الحجر كانت تعلو في الأصل واجهة كنيسة (مارسركيس) وقد كتب بثلاث لغات متباينة ليس للعربية فيها إلا نصيب ضئيل . فالغالبية كانت باللغة اليونانية ثم باللغة السريانية ، والعربية فيه سطر واحد فقط .

إن النقش مؤرخ في سنة 512م وهذا السطر مثبت ضمن النص اليوناني وهو كتابة عربية ذات سمات و ملامح نبطية .

6ـ **نقش (كتابة) حران :**

كتابة حران منقوشة على حجر فوق باب كنيسة أيضاً باللغتين اليونانية والعربية ، ويعتبر أول نص جاهلي عربي كامل في كل كلماته ، ومن الواضح أنه قريب إلى حد ما من الخطوط العربية في القرن الأول الهجري ، يرجع تاريخه إلى سنة 463 نبطي 568م ويتضمن : (أنا شرحبيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول سنة 463 بعد مفسد ــ خيبر ــ بعم .

7ـ نقش كتابة معبد رم (شرقي العقبة):

عثر عليه سافيناك وروسفيلد وهو أقرب إلى العربية .. لذلك رجح العلماء بأن الخط العربي نشأ ونما بين عهد نقش النمارة وبين عهد نقش زبد أي : في القرن الرابع أو الخامس للميلاد .

ويمكن أن يضاف إلى هذه النقوش عددا من النقوش الثمودية واللحيانية العربية الطابع التي كتبت بالخط المعيني الجنوبي . وقد كانت (خصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وإن اختلفت عنها في أداة التعريف ، وفي بعض الصفات اللغوية : [11] بل وفي بعض الألفاظ وذلك يعود لتاريخ ظهور هذا اللفظ أو ذاك ، إذ كانت العربية في الفترة التي سبقت ظهور الفصحى تخطو خطوات متسارعة تجاه الفصيح الذي يقدر تاريخه بحدود ((قرن ونصف القرن أو بقرنين من الزمان على أكثر تقدير)) [12] قبل ظهور الإسلام .

ثانياً : مرحلة صدر الإسلام :

لم تكن الكتابة شائعة قبل مجيء الإسلام ، وكانت نسبة الذين يجيدون القراءة والكتابة من العرب ضئيلة جداً ، فالذين يمارسون القراءة والكتابة عند ظهور الإسلام في المدينة لا يتجاوزون بضعة عشر رجلاً [13] ونقلاً عن البلاذري ((دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب منهم : عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان .

أما النساء اللواتي كن يكتبن فمنهن الشفاء بنت عبد العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، وحفصة بنت عمر زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، تعلمت الكتابة من شفاء العدوية ، وأم كلثوم بنت عقبة وكانت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه تقرأ المصحف ولا تكتب وكذلك أم سلمة)) [14] .

وقد أخذت الكتابة تنتشر بسرعة بعد البعثة النبوية بعد أن شجع الإسلام على ذلك. وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول من شجع على الكتابة إذ قبل من أسرى بدر ممن لا يملكون الفداء ، من يعرف القراءة والكتابة منهم أن يعلم عشرة من ناشئة المسلمين [15]

بل كان القرآن الكريم يحض على الكتابة لاسيما فيما يستجد بينهم من أشكال التعامل – كالدين مثلاً – ودليله من القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل) (16) ، وكان عدد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ ((اثنين وأربعين كاتباً وأول من كتب له أبي بن كعب .. ومن كتابه : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن الأرقم ، وخالد بن سعيد بن العاص ، والعلاء بن عقبة ومعاوية بن أبي سفيان ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، ويعلى ابن أمية ، وحنظلة بن الربيع بن المرقع والحصين بن نمر)) (17) ، ولم تزد الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على كتابة الوحي وكتابة الكتب إلى عظماء العصر في ذلك الوقت . إلا أنهم بعد ذلك وقد ((جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة ، واحتاجت الدولة إلى الكتابة ، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه ، فترقت الإجادة فيه ، واستحكم ، وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان)) (18) ومبلغاً من السعة لاسيما بعد تدوين القرآن الكريم وإرسال نسخه إلى الأمصار وقد عكف الكتاب على نسخه وتوسيع دائرة انتشاره. وفضلاً عن ذلك فقد أخذت الكتابة تستوعب كل ما يهم أمر المسلمين في معاملاتهم وعقودهم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ((يستخدمها في جميع مواثيقه وعهوده وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده . وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود المواثيق سواء منها ما كان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان على لسان خلفائه)) (19) رضوان الله عليهم .

أما في عهد الخلفاء الراشدين فمنذ عهد عمر بن الخطاب دونت الدواوين وأصبح لها كتابٌ يحصون الصادر والوارد من أمر الدولة ، وقد اقتضت الحاجة ذلك فشجع ذلك الناشئة وقد غدت الكتابة سلعة رائجة بينهم الأمر الذي ظهر مردوده بعد في المرحلة اللاحقة .

ثالثاً : مرحلة الكتابة وفن التأليف إلى منتصف القرن الرابع الهجري :

اتخذت الكتابة مع بداية القرن الأول شكلاً أكثر تطوراً إذ ما كدنا نصل إلى عصر هشام (105 ــ 124 هـ) حتى نجد اهتمام الكتاب يرقى إلى مستوى أكثر جودة ومن ثم يتحول إلى نوع من الكتابة الأدبية على يد سالم مولى هشام الذي يعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول [20] وكذا عبدالحميد الكاتب الذي كتب لهشام لأول عهده بعد أن أصهر لسالم مولاه [21] ، ومن ثم لمروان بن محمد (127 – 132هـ) وقد أصبح رئيس ديوانه وعنه أخذ المتراسلون ، ولطريقته لزموا . ولا تلفتنا براعته الأدبية في رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا منها أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية حقة بعد أن هضم وتمثل ثقافة الأمم السابقة كالفرس [22] مثلاً . والذي يتبّع أخبار الكتابة والكتاب يجد فيها مقدمة لظهور كاتب أكثر تمكناً منه ذلك هو عبدالله بن المقفع أو روذبه بن داذويه – الذي قد يكون أول من بعج فن الكتابة ووسع دائرته وأدخله بوابة التأليف الأدبي يدل على ذلك ما تركه لنا من مؤلفات قيمة نذكرمنها : [23] .

1) كتاب الأدب الصغير: وهو كتاب حكم وأمثال ونصائح أخلاقية.
2) كتاب الأدب الكبير، أو الدرة اليتيمة: وفيه ثقافة متعددة المنابع فارسيّة ويونانية وإسلامية.
3) رسالة الصحابة: والمقصود بالصحابة المقربون من الخلفاء والحكام والمستشارون والحجاب.
4) كليلة ودمنة: وهو كتاب يغلب عليه الترجمة ويقال إنه هندي الأصل إلا أن الطابع العربي يغلب عليه .

وإذا عرفنا أن عبدالله بن المقفع قد قتل سنة 142هـ في خلافة المنصور العباسي أدركنا أنه ربما كان من أوائل الكتاب الذين توسعوا في فن الرسائل ومنهم على سبيل المثال : الجاحظ ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني والشريف الرضي وأبو العلاء المعري ، أما أسباب الكتابة المبكرة فيمكن أن تجمل في :

1) **السبب الأول**: أن الفترة الزمنية التي عاشها هؤلاء الكتاب كانت فترة السمو الفكري والتفجر العقلي، فضلاً عن هضم الثقافة الإسلامية وتمثلها، والإخلاص لها قولاً وعملاً.

2) **السبب الثاني**: أن القوم كانوا في مأمن من عدوان السلطان. وكان السلطان نفسه متعلماً مهذباً ملماً بأطراف من العلم؛ ومواقف الرشيد والمأمون وغيرهم من خلفاء بني العباس ووزرائهم وقضاتهم وقوادهم توضح إلى أي مدى كان العلماء محترمين مبجلين بين العامة والخاصة.

3) **السبب الثالث**: أن الكثرة الغالبة من علماء ذلك العصر قد آتاهم الله تعالى بسطة في العمر ، وفسحة في الأجل قضوها كلها في تحصيل العلم ، ثم في التأليف فيه وكان متوسط أعمارهم بين الثمانين والمئة [24] . فالأصمعي عاش (104) سنوات ويونس بن حبيب (88) سنة ، وهشام الكلبي (100) سنة وأبو عبيدة (99) سنة والهيثم بن عدي (97) سنة والمدائني (93) سنة وابن الأعرابي (81) سنة والجاحظ (105) سنوات وأبو العباس ثعلب (91) سنة ، وابن طيفور (76) سنة والمرزباني (87) سنة ، والثعالبي (80) سنة وأصغرهم سناً ابن قتيبة عاش (63) سنة .

4) **السبب الرابع** : ما كان عليه المجتمع من صلاح، ومن قيم صحيحة كفلت العلم والعلماء، وروجت لهم بضاعتهم . فما بين العامين ، العام (41) هـ الذي بدأت منه الدولة الأموية حكمها ، والعام 334هـ الذي سقطت فيه الخلافة العباسية في أسر البويهيين الفرس قامت أغنى الحضارات العربية والإسلامية ، وأكثرها خصوبة، وشملت من البلاد ما لم تشمله من قبل أو بعد ، على امتداد ذلك التاريخ الطويل .

وفيها جميعاً كان الأدب يورق ويونع ويعطى ثماره المرجوة . يستوي في ذلك مشرقه مع مغربه ،وبدايته مع نهايته ، وكان التواصل الفني يتساوق فيه باطراد، ويسجل في كل يوم كشفاً جديداً ، مما جعله يحفل بالمنجزات العلمية، ويغنى بجهود العلماء

العاملين ، الذين وقفوا حياتهم من أجل العلم ، الذي كان ديدنهم في ذلك الوقت. وإذا كان قد بدأ في العهد الأموي بداياته البسيطة ، من رواية شفوية، ومن تدوين أول، ومن جمع ورصد وتعقب لآثار السلف الصالح؛ فضلاً عن الترجمات العلمية التي بدأت مع مطلع القرن الهجري الثاني ، في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز [25] فإن حلقات التواصل فيه لم تتقطع ، بل الذي يترصد ذلك ، يجده يتعاقب بشكل سلّميّ ، وكل لبنة فيه تشكل أساسا لسابقتها ، وفق سنن التطور وما يؤدي إليه عادة من إضافات جديدة وقد شاء الله أن يستمر ذلك لمدة تقرب من ثلاثة قرون ، ويكفي أن نعرف أن كل ما نرفل فيه من فوائد علمية مؤصلة يعود تاريخها إلى تلك الحقبة ، التي تم فيها تقعيد العلوم وتأصيلها ، ووضعها وفق الأسس العلمية الصحيحة ، ويمكن أن نذكر طائفة ممن كان لهم فضل السبق في هذا المضمار ومنهم [26] :

1- **الأئمة المجتهدون** : أبو حنيفة وأنس بن مالك والشافعي وابن حنبل وقد عاشوا خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين .
2- **أصحاب كتب الحديث النبوي** : البخاري ومسلم وابن ماجه وأبو داود والترمذي والنسائي وقد عاشوا خلال القرنين الثالث والرابع .
3- **المؤرخون ومنهم** : البلاذري صاحب فتوح البلدان ، واليعقوبي وله تاريخ اليعقوبي ، وابن جرير الطبري صاحب تاريخ الرسل والملوك ، وابن طيفور صاحب تاريخ بغداد ، وقد عاشوا بين القرنين الثالث والرابع .
4- **العلماء الطبيعيون** : ومنهم الكندي وقد ذكر له أكثر من مئتي كتاب ، والرازي وقد كان مديراً لمارستان بغداد ، وأفلح من عمل في الطب ، والفارابي ويعد لوحده موسوعة علمية . وقد عاشوا جميعاً بين القرنين الثالث والرابع .
5- **الأدباء والشعراء** : وقد برع منهم في العصر الأموي أصحاب النقائض : جرير والأخطل والفرزدق . وفي العصر العباسي المخضرمون أمثال : بشار وابن هرمة ، وابن ميادة ثم خلفهم أمثال : أبي نواس ، وأبي تمام ،

وابن الرومي والبحتري وابن المعتز. كما برع منهم في النقد والنقد الأدبي : ابن سلام والجاحظ وابن قتية وابن عبد ربه والصولي وأبو جعفر النحاس وابن الأنباري المتوفي 328هـ . وقد كان يحفظ (300) ألف بيت شعر وشاهد قرآني .

وهؤلاء جميعاً : من أئمة مجتهدين ، ومن علماء عاملين ، ومن أدباء مبدعين ، ومن شعراء موهوبين ، يعدون بما قدموه من اجتهاد مؤصل ، ومن ريادة أولى في البحث والتحقيق ، ومن قرائح وأفكار، بناة النهضة العلمية في عصورها الزاهرة والأسس التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية على امتدادها الطويل. وهم الذين يعرفون وفق المصطلح العلمي بالقدماء وقد رأينا كيف أن الكثرة الغالبة منهم تحتشد عند تخوم المئة الثالثة أو تتخطاها قليلاً إلى الرابعة وهذا يتفق وما ذهب إليه الذهبي في ميزان الاعتدال من أن نهاية القرن الثالث هي الحد الفاصل بين القدماء والمتأخرين ، ومن جاء بعدهم إلى مطلع العصر الحديث كاد يكون عالة عليهم .

رابعاً : مرحلة التأليف الموسوعي من (350 ـ 1215هـ) :

تعد هذه المرحلة وفق المفهوم الحديث من حيث توزع الأدوار بين الشعوب الإسلامية أممية إسلامية تعاور الحكم فيها أمم شتى [27] ، مع الإقرار بسلطة الخليفة وبقدسية الخلافة. فقد كان العمق الحضاري الذي خلفه العرب في القرون الثلاثة الأولى كافياً للسيادة الحضارية ، لاسيما أن الوسم العربي الإسلامي قد مهر مرافق الحياة كلها ، وجعلها عربية مسلمة صرفاً تمتاز بخاصية اللغة والدين والاستعداد النفسي والوجداني لقبول تبادل الأدوار بروح رياضية سمحة بعيدة عن الاستعلاء والتعصب وحب الذات .

وقد كان دين الإسلام ولغة العرب الآصرتين القويتين اللتين عمتا المسلمين يومذاك، وكانت حلقات التواصل بينهما على أشدها فوصلت ببعديها ما بين المشرق والمغرب . وكانت القرائح والأفكار على امتداد البلاد الإسلامية لا تكاد تختلف إلا بمقدار ، وكان النسغ العربي الإسلامي الذي طم جذوره الفاتحون الأوائل ، ورعاه الخلفاء العظام ، الأمويون والعباسيون ، قد آتى ثماره بعدما قاموا به من جهود جبارة في رعاية العلم

والعلماء . وقد كان من المفروض له أن يستمر ، إلا أن الضعف العربي الذي أصاب الدولة العباسية خلال الفترة من 247 إلى 334 هـ بعد قتل المتوكل وفساد الدولة ، وتمرد الموالي الأتراك ، قد أصاب العلماء كفل منه ، فشدوا الرحال إلى بلدان شتى ، في المشرق والمغرب . وقد ساعدهم على ذلك قيام دول وإمارات ترعى العلم والعلماء أمثال : الدولة الأموية في الأندلس من (138 ـ 403 هـ) والدولة السامانية وراء النهر (261 ـ 389 هـ) والدولة الزيارية في جرجان (316 ـ 434 هـ) والدولة الحمدانية في الجزيرة وحلب من (292 ـ 394هـ) والدولة البويهية في العراق وفارس (320 ـ 447هـ) والدولة الغزنوية في أفغانستان والهند (351 ـ 582هـ) والدولة الفاطمية في مصر وشمالي أفريقية (296 ـ 567هـ) .

وقد عاصرت هذه الدول العصر العباسي الثالث ، وكان لها تأثير عظيم في إحياء العلوم ، بما نبغ من ملوكها أو أمرائها أو وزرائها من محبي العلم والآخذين بناصر العلماء والناس على دين ملوكهم ، وإذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم وأمرائهم . والملك في علمائهم ، لأن العلم لا يورق ويثمر إلا في ظل ملك أو أمير يتعهده ويأخذ بيد أصحابه . إلا أن الملاحظ أن العلم مع بداية هذه المرحلة بدأ يفقد محجته الأولى ومحضنه الأول . فقد آذاه الشتات بقدر ما أفاده ، فالذي يقرأ خطه البياني خلال الأعوام من (334 ـ 923) يلاحظ أنه نازل ، وإن كان قد بدا أكثر زهواً خلال العصر البويهي والعصر السلجوقي الذي ظهرت فيه الموسوعات العلمية ، ذلك أن العمل الموسوعي المتأخر إنما هو حصاد فعل متقدم ولا علاقة له بالابتكار فهو تقعيد وتأصيل وتبويب ، وإعادة جمع وترتيب . لكن التوزع غير المبرمج الذي نشأ بشكل عفوي ، بعد الخلل الذي لحق ببغداد لاسيما بعد اجتياح التتار سنة 656هـ قد أدى إلى ضياع كثير منه ، وإلى تلف بعضه ، وحرق بعضه وسرقة بعضه الآخر . وقد كانت النتيجة أن قلت المكتبات الكبرى ، لذهاب أكثرها حرقاً وغرقاً ، وفي أثناء الفتن ، أو في الفتوح على أيدي المغول في الشرق والأسبان في الغرب ، فقد أحرق جنكيز خان من المكتبات في بخارى ونيسابور وغيرها من مدائن العلم في فارس ما لا يدرك إحصاؤه ، ولم يرد

ذكره مفصلاً ، لأنه جاء تابعاً لما أتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب . أما هولاكو فقد ذكر التاريخ إتلافه كتب العلم ببغداد . وكذلك في الأندلس فإن الأسبان كانوا كلما فتحوا بلداً أخرجوا العرب عنه وأحرقوا كتبهم ، وآخر مكتبة أحرقها الأسبان مكتبة غرناطة على يد الكاردينال زيمنس ، في آخر القرن التاسع للهجرة . إذ أمر بإحراقها ، ثم أمر الجنود فطافوا في المدينة وأخذوا ما كان في أيدي المسلمين من كتب وأحرقوها . ثم أصدر أمراً بتحريم اللغة العربية . والحقيقة أنه بعد كارثة بغداد لم تقم للعلماء قائمة فيها وقد خبت الشعل العلمية ، ولم يعد منها غير بصيص أمل دال على تلك الأرومات المخبأة ، التي سلمت من الحرق أو الغرق أو السرقة ، وقد ظلت هذه الحالة منسحبة على بقية ما تبقى من علوم العرب ومن معارفهم أمداً طويلاً ، ولم تتخلص من تلك المخاطر إلا جزئياً وحسب حال كل إقليم منها . ويمكن أن يمتاز النشاط العلمي في هذه المرحلة تبعاً لنشاط الدول التي قامت فيها . وهو بعامة يمكن أن يوزع على العصور التالية :

1- **العصر البويهي** (334ـ 447هـ): ويعد العصر الذهبي للعلم بخاصة . فيه نضجت العلوم ، وظهرت الكتب الوافية ونبغ المفكرون والمشتغلون بالعلم والأدب من الشعراء والأدباء والمؤرخين والجغرافيين واللغويين والفلاسفة في مدائن كثيرة ممتدة من التركستان إلى الأندلس . وقد أدى اطلاع أهل الأدب على الكتب الفلسفية والمنطقية إلى إضافة كثير من العلوم والمعارف كما أن الاختلاط بين الأقوام الأخرى أدى إلى التوسع في أغراض الشعر كالوصف مثلاً ، وإلى إضافة فنون جديدة كالزجل والموشح (28) . وإلى اشتغال عدد كبير من العلماء في الشعر والأدب والتأليف بشكل عام، الأمر الذي أدى إلى تنامي عدد العاملين في هذا المجال . وقد نبغ من الشعراء أبو الطيب المتنبي ت 354 ، وأبو فراس الحمداني ت 357 هـ وابن هاني الأندلسي ت 363 هـ ، وأبو العلاء المعري ت 449 هـ ومن الأدباء : أبو الفرج الأصبهاني ت 356 هـ ، والثعالبي ت 429هـ وابن رشيق ت 456 هـ ومن الكتاب: ابن العميد ت 360هـ وبديع الزمان

الهمذاني ت 398 هـ . ومن العلماء الطبيعيين :ابن سينا ت 428 هـ ، وأبو الريحان البيروني ت440هـ.

2- **العصر السلجوقي** (447 هـ - 656 هـ) : وهو عصر ازدهار علمي وفني ، يمتاز عما تقدمه بنضج العلم وبداية ظهور المدارس العلمية المنظمة . وأقدم مدرسة افتتحت في بغداد المدرسة النظامية التي افتتحها نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي وقد كان لها شأن كبير في العالم الإسلامي . وقد تعاقبت في العصور التي جاءت بعد ، وظلت بقاياها مستمرة إلى العصر الحديث وكان ممن نبغ من أصحاب الشأن في هذا العصر من الشعراء : ابن سناء الملك ت 608هـ وعمر بن الفارض ت 632 . ومن الكتاب: القاضي الفاضل وزير صلاح الدين (ت 596هـ) وابن أبي الشخباء كاتب المنتصر الفاطمي ت 482هـ [29] ومن المؤرخين : ابن عساكر ت 571 هـ ، وعزالدين بن الأثيرت 630هـ وسبط بن الجوزي ت 654هـ ومن علماء الدين ابن حزم الظاهري ت 456 هـ ، وأبو حامد الغزالي ت 502هـ ومحمد بن تومرت ت 524هـ . ومن الفلاسفة : محمد بن رشد ت 595هـ ومحمد بن طفيل ت581 هـ. ومن الجغرافيين : ياقوت الحموي ت 626هـ والرحالة ابن جبيرت611هـ .

3- **عصر المماليك** (648 – 923 هـ) : وهو عصر ما بعد سقوط بغداد ويطلق عليه اسم العصر المغولي نسبة لاجتياح المغول مدائن العالم الإسلامي . وقد بدأ بسقوط بغداد وبذهاب نفائس الكتب التي كانت موزعة بين بغداد وبخارى ونيسابور والري ودمشق فطالتها أيدي التتار وأتلفتها وحرمت منها العلماء العاملين . فتحول بعدها الثقل إلى القاهرة المعزية ونشط العلماء في الديار المصرية واستجدت حركة من الجمع والتأليف ، وقد كثروا في الشام ومصر وشمالي أفريقية واشتهروا بألقابهم [30] . كالدمشقي والحلبي ، والقاهري والفيومي ، والإسكندري والمقدسي والحموي والحمصي والتونسي وقد صارت القاهرة ملجأ علماء العربية ، ونشطت المدارس الرسمية التي أسسها الزنكيون والأيوبيون

والمماليك . واختلفت حسب مذاهبها وأغراضها ، كما انصرف كثير من العلماء إلى الاشتغال بالفلسفة والفلك والرياضيات وقد نبغ من الشعراء : البوصيري ت 695هـ وسراج الدين الوراق ت 695 هـ . وابن نباته المصري 768هـ والشهاب محمود ت 725 هـ ومن اللغويين : ابن مالك توفي 672هـ وابن منظور ت711هـ وابن هشام ت 861هـ ومن المؤرخين : ابن كثير ت 774هـ وابن خلدون ت 808هـ ومن الموسوعيين : النويري ت 732 هـ، وجلال الدين السيوطي ت 911 هـ ، ومن الفقهاء : ابن تيمية ت 728هـ وابن قيم الجوزية ت 751 هـ والرحالة ابن بطوطة ت 779هـ .

4- **العصر العثماني** (923 – 1341 **هـ**) [31] ؛ويعد هذا العصر من العصور المتأخرة ، ولا يذكر إلا ويذكر معه الضعف والتخلف ، بالرغم مما كان له من سابقة في الجهاد ، وقد ظهرت في أوائل هذا العصر ثمار العصور السابقة ونضجها ثم أخذت تتلاشى مع تقادم العهد حتى كادت تنعدم مع مطلع العصر الحديث وقد انحصرت في الشروح والحواشي والتعاليق وشروح الشروح ونحوها ، حتى جاز أن يسمى هذا العصر بـ (عصر الشروح والحواشي) كما سمي العصر المغولي (عصر الموسوعات والمجاميع) [32] وأهم ما صدر منها : خزانه الأدب لعبد القادر البغدادي ت 1093 هـ ، وتاج العروس في شرح جواهر القاموس للسيد مرتضى الزبيدي ت 1205 هـ ، ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب لمحمد بن أحمد المقري التلمساني ت 1041 هـ وكشف الظنون في أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ت1068 هـ.

خامساً : ـ مرحلة الطباعة :

وهي المرحلة المتأخرة ، التي تحتل حيزاً زمنياً متوسطاً بين العصور الوسيطة والحديثة، وهي تمثل النقلة الأكثر أهمية في تاريخ العرب وقد انتقلوا فيها من عصر المخطوط إلى عصر المطبوع ، وهي مرحلة يصح المقارنة فيها بين عصر السراج

والشمعة وعصر القناديل المضيئة بعد اكتشاف الكهرباء و وصول التيار إلى المنازل والبيوت بعامة .

أما بالنسبة لبدايات الطباعة ، ولتاريخ ظهورها على وجه التحديد [33] : فإن لدير قزحيا في شمالي لبنان فضل السبق إلى اقتناء أول مطبعة في بلاد الشام إلا أن الطباعة فيها كانت بالحرف الكرشوني ، إذ طبعت سفر المزامير في 1019 هـ/ 1610 م باللغة السريانية وباللغة العربية مكتوبة بالحرف الكرشوني . أما آلة الطباعة بالحروف العربية فقد عرفها الوطن العربي أول ما عرفها سنة 1118 هـ / 1706 م . في حلب على يد البطريرك أثناسيوس دباس الذي كانت تربطه بقسطنطين حاكم ولاية الأفلاق الرومانية علاقة طيبة الأمر الذي جعل البطريرك يجلب معه المطبعة إلى حلب فيما بعد وإن كانت هذه المطبعة لم تؤت ثمارها المرجوة لاقتصارها على الأغراض الدينية والتجارية [34] . ولم تدخل المطبعة إلى البلاد العربية حقيقة إلا مع مطلع العصر الحديث وتحديداً بعد الحملة الفرنسية على مصر سنة 1213 هـ/ 1798م. (ومن أول ما يذكر من المطابع العربية مطبعة في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية أنشئت سنة 1816 م. ومطبعة في القاهرة سنة 1822 م. وقد اشتهرت الأخيرة باسم مطبعة بولاق أو المطبعة الأميرية ، وقد أنشأها والي مصر محمد علي باشا ، وكان يطبع فيها جريدة الحكومة الرسمية المعروفة باسم (الوقائع المصرية) ومنشورات الحكومة ومراسيمها والكتب المدرسية التي كانت تدرس في المدارس التي أنشأها هذا الوالي ، وقد استمرت تعمل بعده وطبع فيها كثير من الكتب العربية المخطوطة القديمة أو المؤلفة حديثاً أو المترجمة إلى العربية عن اللغات الأجنبية [35] .

((وقد بلغ عدد الكتب التي طبعت فيها بين سنتي 1822و 1830هـ نحو خمسين كتاباً وارتفع العدد في نهاية سنة 1850 إلى ثلاث مئة كتاب في مختلف الشئون الأدبية والتاريخية والفنية ومن أول المطابع العربية المطبعتان الأميركية واليسوعية في بيروت اللتان أنشئتا في أواسط القرن التاسع عشر . ومما ذكرته المصادر أن عدد المطابع التي أنشئت في القدس بين عامي 1830و 1871 بلغ إحدى عشرة مطبعة))[36] .

((ولقد صدر في جميع بلاد العرب قبل سنة 1908م أكثر من 800 جريدة ومجلة ومن هذا العدد (650) في مصر وحدها مما يسوغ القول : إن عدد المطابع في مصر كان كبيراً جداً . ولقد كان يصدر في كل من دمشق وبغداد ، البصرة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر بعض الجرائد والمجلات مما يسوغ القول : أنها كان فيها مطابع وحركة طباعة)) [37] .

و ((رافق إنشاء المطابع العربية واتساع نطاق حركة الطباعة نهضة علمية حيث تسنى طبع كثيرمن الكتب العربية المخطوطة القديمة من دينية وتاريخية، وأدبية وحيث طبع كثير من الكتب العربية المؤلفة حديثاً في مثل ذلك، وطبع كثير من الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية)) [38] .

ويقدر ((أن ما طبعته مطبعة بولاق وحدها بين سني 1832 ــ 1842 من الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية قد بلغ 243 كتاباً، وبلغ عدد الكتب التي ترجمتها مدرسة الألسن التي كان أنشأها الوالي محمد علي واستمرت بعده في نفس الفترة ألفي كتاب، ناهيك عما يمكن أن يكون قد طبع من مخطوطات عربية قديمة، ومن مؤلفات عربية حديثة التأليف)) [39] .

كما ((روي أن عدد نسخ الكتب العلمية والأدبية التي طبعتها المطبعة الأميركية وحدها في بيروت في عام 1861 قد بلغ (57500) كتاباً، بيع منها في نفس السنة (15715) من الكتب الأدبية ، و (23472) من الكتب العلمية . واستمر هذا الجهد يتسع سنة بعد سنة بقية القرن التاسع عشر إلى سنة 1908 ، وهو ممثل في آلاف الكتب المختلفة)) [40] .

((وصار الأفراد والأسر ينشئون في بيوتهم مكتبات خاصة تضم المئات والألوف من الكتب .. ومن أشهر المكتبات العامة دار الكتب الخديوية التي صار اسمها دار الكتب المصرية ، ومكتبة الأزهر ، ومكتبة الكلية – الجامعة الأميركية ، ومكتبة الكلية الجامعة اليسوعية ، والمكتبة الظاهرية في دمشق ، والمكتبة الخالدية في بيت المقدس وإن كانت

هذه مكتبة أسرية في الدرجة الأولى فلها نظائر في حلب وبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها)) [41].

وهذا الثبت المختصر من الحديث عن المطابع وما صحبها من طباعة يفتح المجال واسعاً للحديث عن المخطوط الذي كان بحجم الحركة العلمية ، التي بدأت مع بداية الدعوة الإسلامية واستمرت إلى عصر الطباعة . وربما بسبب من تنقل العلماء الواسع ، ومن الكوارث التي أصابت العالم الإسلامي، ومن النهب والسلب والحرق والتدمير الذي صحب الغزو الأجنبي توزع ذلك المخطوط على القارات الخمس وأصبح أمر الحفاظ عليه يتطلب كلفة أكبر مما قد يتصوره الإنسان العادي . وقد تطلب الأمر جهوداً حثيثة ذات صفة رسمية وأكاديمية من أجل انتشاله مما هو فيه وإخراجه للناشئة من جديد ليفيدوا منه ، وليكون جزءاً من التراث الحي في عصر أحوج ما يكون فيه الإنسان إلى تراثه وقيمه .

ولقد اتخذ إخراج المخطوط من جديد وطباعته شكلين مختلفين :

الشكل الأول : يتمثل في طباعة المخطوط كما هو بدون التعرض لصحته، أو ما هو عليه من قريب أو بعيد سوى الخط . وقد كان هذا الشكل ما ذهب إليه بعض الناشرين الذين هدف أكثرهم إلى التجارة حيث كانت تجارة الكتب تدر أرباحاً هائلة بصرف النظر عما كان يعتور ذلك من أخطاء بعضها قد يطال المادة العلمية ذاتها ، وبعضها يطال الكتاب وكاتبه معا، من حيث نسبة الكتاب أو عنوانه، أو النسخة التي اعتمدت دون سواها ، مع ما قد يكون طرأ عليها من تصحيف أو تحريف أو تغيير أو تبديل أو إضافة أو حذف أو غير ذلك من أشكال الاعتلال التي قد تصيب الكتاب المطبوع.

الشكل الثاني: يتمثل في إعادة النظر في المخطوط قبل طبعه ، وقد تفاوت من حيث الصحة تفاوتاً راوح فيه بين أن يكون لصيقاً بالشكل الأول أو أن يكون على درجة مقبولة من الجودة . ففي السوق اليوم نماذج مختلفة يمكن أن نذكر منها:

1- **النموذج الأول**: اقتصر جهد الناشر فيه على قراءة المخطوط وإعادة كتابته وفق قواعد الإملاء الحديث وفهرسته وإعادة إخراجه من جديد. دون النظر في مادته

العلمية وما قد يكون أصابه عبر التاريخ الطويل الذي مر به وهو مركـون على الرفوف ، أو متنقلاً من بلد لآخر أو متداولاً بين الأيدي من تصحيف أو تحريف . وهذا النموذج أشبه بالنسخة المصورة . ولا يعتمد عليه .

2- **النموذج الثاني** : وهو يقترب من التحقيق لكنه يقتصر على :

أ) النسخة الواحدة .

ب) إعادة كتابته وفق قواعد الإملاء الحديث .

ج) تحقيق الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وشرح بعض المفردات الصعبة وعزو بعض الأبيات الشعرية إلى مظانها .

د) فهرسته فهرسة حديثة ثم نشره مع الإشارة إلى تحقيقه وصفة محققه .

ونموذج ذلك عندنا كتاب الصناعتين لمصنفه أبي هلال العسكري [42] المتوفي سنة 395 هـ ، وهو من إصدارات دار الكتب العلمية ببيروت، ومحققه الدكتور مفيد قميحة ،ومما يؤخذ على ذلك التحقيق :

1) لم يقدم المحقق أية معلومات عن نسخ الكتاب عن عددها وعما هي عليه من جودة وإن كان قد أشار ص (11) في الهامش رقم (2) إلى وجود اختلاف في النسخ في (مُكَرْكَسَةُ تَرَبُونا) . ولم يحل مشكلتها أو يفصل فيها بينما نجده بعد ذلك ينـدر أن يذكر النسخ أو يتعرض لها . وتعليقه هذا دلنا على :-

أ) أن هذه النسخة ليست الوحيدة .

ب) أن هناك عدداً من النسخ الأخرى .

لذا كان في المسألة قصور في التحقيق دلّ على ذلك إهمال النسخ وما قـد تفتحـه أمامنا من أبواب قد تكون على غاية من الأهمية ، لاسيما من حيـث المـادة العلميـة . وفضلاً عنه لم يشر المحقق إلى أي من الرموز والمصطلحات التي لجأ إليها في أثنـاء تحقيقه لمتن الكتاب كما أنه لم يشر للعنوان وصحة نسبته ولم يميز بين النسخ كقولـه : نسخة (أ) أو نسخة (ب) أو (ج) أو نسخة (د) وهكذا فهو مـثلاً فـي ص 316 فـي

الهامش رقم (4) يقول في بعض النسخ ينسب لعنترة . ولم يوضح . وهذا ما جعلنا نشك فيما يقوله .

2) قام المحقق بنسبة بعض الشواهد الشعرية إلى أصحابها ، والبعض الآخر تجاهله تماماً فنحن نرى ص 168 خمسة شواهد شعرية لم ينسب منها إلا شاهداً شعرياً واحداً هو في الأصل معزى لصاحبه ، وكذا في الصفحة التي تليها لم ينسب الشاهد الأخير واكتفى بشرح بعض مفرداته وقد كان منهجه في التحقيق أن يعرف المعروف من الشواهد بتحديد مكانه في ديوان صاحبه . أما المبهم فكان يغض الطرف عنه .

3) قام المحقق بشرح بعض المفردات التي اعتقد أنها صعبة .

4) لم يكن دقيقاً من حيث صحة الكتابة؛ فأنت تجد ص 489 القول (وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس ابتدائه) والصحيح ابتداءه لأنها في موقع المفعول بـه وكذلك في ص 490 السطر الخامس قبل الأ خير لفظة (اثنان) وهي من الأسماء العشرة التي لا تهمز وقد همزها. وكـذافي ص 493 السطر التاسع (فاسترذل ابتدائها) والصحيح ابتداءها لأنها في موقع المفعول بـه و كـذلك في ص (496) المقطع الأخير من الصفحة نجد خطأين إملائيين في أقل من سطرين. فلفظة (الاستماع) وردت مرتين مقطوعة الهمزة علما أن (الاستماع)مصدر لفعل خماسيّ همزته همزة وصل . ونجد في ص 495 في الشاهد الثالث في قوله :

في الخد إن عزم الخليط رحيلاً مطر تزيد به الخدود محولا

نجده هنا يحذف همزة إن والأصل أن يقول (إن) وعلى مثل ذلك قد نجد ما يصعب إحصاؤه من الأخطاء التي توافرت في متن الكتاب التي دلت على هـذا الشكل من التحقيق .

النموذج الثالث : التحقيق العلمي وهو تحقيق محكك أقامه صاحبه على أساس من القواعد العلمية التي عليها فن التحقيق والتي تعد مستنبطة من طبيعة المخطوط ومما هو عليه وذلك من جوانب أربعة :

الجانب الأول : يتعلق بالمخطوط وكاتبه . وبالعنوان وصحته ، وبنسبته إلى صاحبه .

الجانب الثاني : ويتعلق بالنسخ وبما هي عليه من اختلافات، وبتواريخها وأرقامها ونسخة الأصل منها، وببعدها أو قربها من عصر صاحبها .

الجانب الثالث : ويتعلق بالخط الذي كتب به المخطوط وبطبيعة رسمه وبما اكتنفه من غموض أو اعتوره من إشكال أو تخلله من رموز ومصطلحات كان عليها العلماء في عصر كتابة المخطوط .

الجانب الرابع : تحقيق المتن أي : نص المخطوط . وهو يكون عادة بعد معالجة الجوانب الثلاثة الإجرائية المنهج . التي تكون عادة قبل التحقيق . حيث يتناول الباحث في أثناء التحقيق ما يلي :

1- إعادة كتابة المخطوط من جديد وفق القواعد الإملائية الصحيحة وبضبط لغوي مع مراعاة القواعد النحوية والصرفية في أثناء النقل .
2- تحديد نسخة الأصل ويكون ذلك تبعاً لقربها من صاحب المخطوط أو لجودتها دون سواها من النسخ الأخرى .
3- مقارنة نسخ المخطوط مع نسخة الأصل وإظهار الاختلافات الواردة في بعض النسخ في الهامش .
4- التحقق من صحة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والتواريخ ، والرجال والأبيات الشعرية ونسبتها إلى أصحابها أو مظانها نسبة صحيحة ، والإشارة إلى مواضع الخطأ إن وجدت .
5- شرح المبهم من الألفاظ والعبارات والمصطلحات العلمية شرحاً مستوفياً يتعلق بطبيعة المادة وذلك بالرجوع إلى كتب الأصول التي تتعلق بكل منها من معاجم لغوية أو ذات صفة اختصاصية .وفضلاً عن ذلك التأكد من صحة المادة العلمية التي وردت في النص.

ومثل هذا التحقيق هو الشائع أكاديمياً وهو المتبع عند السادة المحققين بل هو التحقيق العلمي الذي يجب أن يفعله المحققون ليتّسم تحقيقهم بالمنهجية ومثلنا لذلك كتاب (لباب الإعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب) تأليف الإمام عبدالوهاب بن أحمد

الشعراني المتوفي سنة 973هـ . تحقيق الدكتور عبدالله عبدالقادر الطويل . مطبعة دار البدر للنشر والتوزيع والترجمة . مصر . المنصورة لسنة 1428هـ - 2007م .

لقد قسم الباحث المؤلف إلى قسمين رئيسين القسم الأول : وزعه على فصلين الفصل الأول : خص به الإمام الشعراني ؛ حياته وآثاره . وقد تناول فيه اسمه ونسبه وشيوخه وتلاميذه وآثاره وقد بلغت اثنتين وستين مؤلفاً أرجعها جميعاً إلى مظانها وعرف بالمطبوع منها تعريفاً مقبولاً . فكان ذلك بمثابة كشف عن آثار ذلك العالم الجليل الذي خلف مثل هذا الكم الهائل من المصنفات . كما حدد تاريخ وفاته ، قد لنا صنيعه على عصر المؤلف الأمر الذي ساعدنا على فهم المؤلف والدخول إلى عالمه الخاص فيما قدم من جهد .

الفصل الثاني : وقد كان أكثر سعة وفيه قام المحقق بتوثيق اسم الكتاب بأدلة مقبولة وبشاهد موثق كما قام بتوثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه بأدلة موثقة بعضها من المخطوط وبعضها الآخر من المظان الموثقة . ثم تناول بعد ذلك منهج المؤلف في مصنفه فذكر أنه وزعه على ستة أبواب وذيله بخاتمة وهي في رأيه خاتمة حاوية لجميع ما في الكتاب بطريقة مختصرة وواضحة ، وقد أورد قوله منها: ((فامتحن بذلك ما شئت من أبواب النحو تجده راجعاً إلى هذه الخاتمة)) [43] كما تناول الغرض من تأليف الكتاب ، وعرف بمصادره وهي من الكتاب والسنة ومن الشعر . ثم انتقل إلى وصف المخطوط وبيان نسخه وقد انحصرت في نسختين : نسخة الأصل ، والنسخة ل ، ثم عرف بها تعريفاً مجزياً وفي أخير خاتمة الكتاب ذكر أنها كتبت في سنة ألف ومئتين وثلاثة وثلاثين من الهجرة ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان منهجه في التحقيق وبيان الرموز والمصطلحات التي اتخذ منها وسيلة لضبط النص وتحريره . ثم أردف ذلك بمصورات عن بعض المخطوط فكان ذلك عملاً مبدعاً في تقديرنا ؛ محكماً علمياً ، ومرتباً ترتيباً جيداً .

القسم الثاني : وقد تناول فيه المحقق تحقيق نص كتاب لباب الإعراب وقد ذيله بفهرس وبمصادر الدراسة والتحقيق ومراجعهما . وبصفحة المحتويات التي أورد فيها ثبتاً

مفصلاً بما صنع من دراسة أو تحقيق أو تعريف بالمؤلف وآثاره . وما يهمنا فيه تعامله مع المتن . حيث انحصر ذلك في :

1- الإشارة إلى ما انفردت به نسخة عن أخرى. والإشارة إلى صوابية ما أثبته.
2- التعريف بأعلام الرجال .
3- الإشارة إلى بعض الزيادة التي يقتضيها السياق وقد وضعها بين (....) ينظر صـ 44 . وقد تكرر هذا في أماكن أخرى . وهو اجتهاد منه .
4- التأكد من صحة ما جاء فيه من مسائل نحوية بالإشارة إلى المصادر التي نقل منها وبالإشارة إلى مواقف النحويين من ذلك قال في 64 الهامش رقم (5) هذا مذهب الخليل وسيبويه. و قد قام بشرح بعضها إذا اقتضت الحاجة ذلك كما في ص 69 الهامش رقم (24) حيث فصل في الظرف تفصيلاً معللا وموثقاً وكذلك في ص (8) وقد فصل القول في من التي هي لابتداء الغاية وذلك في الهامش رقم (3) .
5- نسبة الشعر إلى قائله . كما في ص 49 . وقد نسب الشعر لابن الحاجب وكذلك ص 78 وقد نسب قول الشاعر (عار عليك إذا فعلت عظيم) إلى أبي الأسود الدؤلي ولعله رجح ذلك .
6- التحقق من صحة الآيات القرآنية .
7- التحقق من صحة الأحاديث النبوية . فقد أخرج في قوله في الحديث (كاد الفقر أن يكون كفراً) قال في ص 66 الهامش رقم (1) أخرجه أبو مسلم السكني والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاش عن أنس ويزيد ضعيف . و في رواية الطبراني في الأوسط وجه آخر بلفظ (كادت الحاجة أن تكون كفراً) قال: فيه ضعف . وهذا دل على دقته في المسألة والأمر نفسه مع قوله في ص 76 (وفي الحديث : (إياكم وخضراء الدمن) . قال في الهامش رقم (6) وتكملته (فقيل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء في المنبت السوء) قال : رواه

الدار قطني وقد فصل فيه شأن سابقه وقال : تفرد به الواقدي وهو ضعيف وأشار إلى الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص (130).

وهذا التحقيق المعلل لا يعني أنه خلا من الهنات فهناك أخطاء ؛ ففي ص (29) الهامش رقم (2) ورقم (3) . الإحالة إلى لباب الإعراب ص 141 والصحيح 114 وفي ص (31) عجز البيت الشعري : (وأبرز ببرزة حيث اضطرك القدر) . أبرزْ أمر ثلاثي همزته همزة وصل وقد قطعها ، وبذلك كسر البيت . وفضلاً عن ذلك هو من وجوه الخطأ . وفي ص (78) قال في الهامش رقم (1) ينظر اللسان (عظف) والصحيح عظم وليس عظف . وأخيراً في الخاتمة ص 115 . قال (كان الفراغ من كتابته يوم الخميس المبارك الثامن والعشرون من شهر شعبان الخير من شهور سنة ثمان مئة وألف من الهجرة النبوية) وتاريخ ثمان مئة وألف خطأ . ولعل في المسألة تصحيف أو خطأ مطبعي لم ينتبه إليه .

وهذه الأخطاء – وهي ليست كل ما في الكتاب – تعد نزره بالقياس إلى تحقيق كتاب الصناعتين ؛ أو إلى سواه من أشكال التحقيق التجاري الذي يفتقر إلى العلمية . وعليه : يكون فن التحقيق مرتبطاً بعلميته وبأمانة العمل فيه ، وبمنهجيته التي يجب أن تكون دقيقه وصارمة ، وذات أصول وقواعد الخروج عليها يؤدي إلى الضرر بالمخطوط نفسه وبالعلمية والموضوعية التي يتطلبها العمل الجاد .

وهكذا تأتي مرحلة الطباعة لتضع حداً فاصلاً بين مرحلتين متمايزتين وقد مثلت نهاية العصر الذي قام عليه نظام المخطوط بعد ظهور المطبوع وما صحب ذلك من التفات إلى القديم ، ومن محاولة إعادة النظر فيه ، بل والتواصل معه ليكون جزءاً من مفردات المرحلة الجديدة التي تتسم بالعلمية والجدة وبالتقنية المتطورة .

الخـــاتمـة :ـ

وهكذا نرى أن فن الكتابة والتأليف اتخذ شكلاً متدرجاً توافق مع الفصحى ورقيها ومع الثورة التي أحدثها الإسلام ، وقد تسارعت وتائر التطور ، لتنتقل بالعرب من أمة لا تقرأ ولا تكتب ، إلى جهابذة علم ، وأساطين معرفة ، وإلى كم معرفي هائل ، عجزت أمم البشر أن تأتي بمثله . وقد جاء ذلك عبر أزمان مختلفة ، ومراحل متعاقبة ، امتدت من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر الطباعة ، حيث كان خاتمة ذلك عودة جهابذة العارفين إلى ذلك الكم الهائل من التراث ، وانكبابهم عليه دراسة وتمحيصاً وذلك فيما يعرف بفن تحقيق النصوص ونشرها وهو الظاهرة العلمية الأكثر شيوعاً في هذا العصر. وخلال رحلة البحث هذه يمكن أن نقول: إننا توصلنا إلى النتائج التالية :-

1) إن التطورالعلمي الهائل الذي حدث في تاريخ العرب اتخذ شكلاً بنائياً ، وأن كل مرحلة منه كانت تمثل أساساً للمرحلة التي جاءت بعدها .

2) إن دور العرب وتأثيرهم في العلم والعلماء ، كأن مؤسساً ، ولم يسلموا الراية إلى من جاء بعدهم من شعوب ، إلا بعد أن بعجوا العربية ومدوا آفاقها ، لتصبح اللغة الأكثر شيوعاً من بخارى وسمر قند في المشرق ، إلى قرطبة وشنقيط في المغرب . وهو أمر لما يزل له حضوره المتجدد ، لاسيما بعد الوصول إلى عصر الطباعة ، وظهور فن التحقيق . وعليه فنحن نوصي باثنتين :

1- بضرورة الارتفاع بمستوى تحقيق النصوص ، كونه يمثل التواصل الفاعل مع التراث ، وهي مسألة غاية في الأهمية ، وذات بعد قومي صرف .

2- الإفادة من التراث الذي خلفه العرب في أحقابهم السابقة ، والنسج على منواله وعدم الاكتفاء بتحقيقه ونشره ؛ كونه من وجهة نظر باحثة يعد مرتكزاً قوياً ، وأساساً ثابتاً ، لرقيهم وتقدمهم ولعودتهم إلى الظهور من جديد .

الهـوامش والمصادر

(1) هذا التاريخ يتعلق بالعصر الجاهلي حسب . وإلا هؤلاء فهناك نقوش تعود إلى مراحل أبعد من هذا التاريخ كالذي عثـر عليه في اليمن ، وفي بلاد الشام وبلاد الرافدين .

(2) تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط (8) ينظر : 1 : 24 .

(3) نفائس الخط العربي ، تأليف حسن قاسم حبش ، دار العلم ، بيروت ، لبنان : 15.

(4) الجمعة ، الآية : 2 .

(5) مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، لبنان : 419 .

(6) نفسه : 418 .

(7) نفائس الخط العربي 18 ـ 20 .

(8) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د.جواد علي ، دار العلم للملايين ، بيـروت ، ط(1) 1969 . وفيـه : النبطـي نسبه إلى الأنباط الذين قامت دولتهم في شرق الأردن . وهي دولة عربية محضة .ينظر 5:3 ـ75

(9) الكامل في التاريخ . وابن الأثير،دار الكتاب العربي،بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1400هـ ـ 1800 م. ص1 : 200 .

(10) الروض المعطار في خبر الأقطار تأليف محمد بن عبدالمنعم الحميري . تحقيق د. إحسان عبـاس ، بيـروت لبنـان 1984 م. وفيه حران مدينة من ديار مضر (على شاطئ الفرات شمالي مدينة الرقة حالياً) قديمة عتيقة يقال بناها هـران أخو إبراهيم عليه السلام . وهو أبو لوط عليه السلام . وإليه تنسب حران وهي مدينة الصابئين ، ولهم بهـا تـل عليـه مصلاهم ، ولها أربعة أبواب ، باب الرقة الجنوبي وباب يزيد الشرقي وباب يزيد الشمالي وباب الفرات الغربي . ينظـر : ص 192 .

(11) تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف 1 : 33 .

(12) الحيوان الجاحظ ،دار إحياء التراث العربي 1388 هـ ـ 1969 م

(13) ينظر : نفائس الخط العربي : 20 .

(14) نفسه : 20 .

(15) تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف : 2 : 129 . نقلاً عن طبقات بن سعد ، ج(2) ، ص 14 .

(16) البقرة ، الآية 282 .

(17) نفائس الخط العربي : 21 .

(18) مقدمة بن خلدون : 420 .

(19) تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ، 2 : 430 .

(20) ينظر : الفهرست لابن النديم ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت 1978: ص 182 .

(21) ينظر : تاريخ الأدب العربي 2: 473 – 479 .

(22) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ت 395 . تحقيق مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيـروت لبنـان ، الطبعـة الأولى ، 1401هـ –1981 م ينظر : ص : 84 .

(23) السابق 3 : 507 – 526 .

(24) مناهج التأليف عند العرب ، مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، ط (1) ، 1984 ، ص20 .

(25) تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف : 456 .

[26] الخضرمة في الشعر العربي بين العصرين العباسي والحديث ، د. عبدالعزيز الحاج مصطفى وهي رسالة دكتوراة غير مطبوعة ، تقدم بها صاحبها إلى جامعة بغداد في 1414 هـ 1994، ص 16 – 18 .

[27] المصدر نفسه ، ينظر من 20 – 24 .

[28] نفح الطيب من غص الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني تحقيق . إحسان عباس ، دار صادر بيروت 1968 ، ينظر : 7 : 5 – 15 .

[29] مطالعات في الأدب المملوكي والعثماني ، بكري شيخ أمين ، ص : 360 ،

[30] تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان منشورات دار الحياة ، بيروت ، ينظر : 3: 117 .

[31] حضارة العراق الجزء الحادي عشر ، بغداد 1985 م ، ينظر جـ 11 ص 147 ، فيه العثماني والمملوكي عصر وأحد.

[32] تاريخ آداب العرب ، جرجي زيدان 3 : 285 .

[33] مطالعات في الأدب والعثماني : 76 – 77 .

[34] نشأة الحركة العربية الحديثة ، محمد عزة دروزة ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت 1368 هـ – 1949 ينظر: 129 .

[35] نفسه : 130 .

[36] نفسه .

[37] نفسه .

[38] نفسه .

[39] نفسه : 131 .

[40] نفسه .

[41] نفسه .

[42] كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري . تحقيق مفيد قميحة .

[43] لباب الإعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب . للإمام عبدالوهاب أحمد الشعراني ت973 هـ ، دراسة وتحقيق د. عبدالله عبدالقادر الطويل ، دار البدر ، مصر 1428 هـ – 2007 م. ص : 29 .